

لماذا يتوجب على بريطانيا توسيع ضرباتها الجوية في سوريا؟

في ٢ كانون الأول/ ديسمبر صوت البرلمان البريطاني لصالح قرار يوسع العمليات القتالية ضد التنظيم الذي أعلن نفسه "الدولة الإسلامية"/ "الدولة الإسلامية في العراق والشام" (داعش)

الفتنات كولونيل جون بارنيت
معهد واشنطن للدراسات الاستراتيجية



من خلال توسيع الضربات الجوية من العراق إلى سوريا. ومن وجهة نظر التحالف، فإن تجنيد الدعم العسكري البريطاني في سوريا يتمتع بأهمية خاصة من حيث الأسباب لملموسة المتعلقة بالقدرات والدوافع ومن حيث الأسباب الأقل ملموسة القائمة على التضامن. يُذكر أن القوات البريطانية نفذت وبنجاح طلعات جوية من قبرص ضد أهداف تابعة لتنظيم "داعش" في العراق منذ ٢٠١٤/سبتمبر على مدى أربعة عشر شهراً متتالياً ضمن إطار "عملية شادر"، وكانت بريطانيا تتصدر فرنسا وهولندا والثانية بعد الولايات المتحدة في عدد الغارات الجوية ضد أهداف العدو. هذا وتشير تقارير الصحافة البريطانية إلى أنه في حال وافق البرلمان على عملية التوسع هذه، فإن وزارة الدفاع ستضاعف عدد الطائرات المقاتلة المأهولة (طائرات مقاتلة من طراز تورنادو وتايغون) ليصل عددها إلى حوالي ستة عشر طائرة، لئيم بعد ذلك توظيفها ضد أهداف في كل من سوريا والعراق. وعلى الرغم من أن هذا العدد لا يشكل عملاً قد يغير قواعد اللعبة، إلا أنه سيعزز الآثار التكتيكية للتحالف. فهذه الطائرات، المجهزة بأختر عالية الدقة مثل قابل "بيفواي" الموجهة، ستزيد زمن الاستجابة، مما سيؤدي في نهاية المطاف إلى توسيع مجموعة الأهداف المحددة التابعة لتنظيم "الدولة الإسلامية". إضافة إلى ذلك، فإن إدراج هذه الطائرات قد يخفف قليلاً من عبء الخدمات اللوجستية والصيانة على الطائرات الأمريكية في وقت تخطط فيه القيادة المركزية الأمريكية لزيادة طلعاتها القتالية وعمليات القاء القنابل على الأهداف في سوريا. في هذا الإطار، أشارت صحيفة نيويورك تايمز إلى أن القوات الأمريكية الجوية منها والبحرية قامت بما يقارب ٩٥ في المائة من طائرات أمريكية).

على وجه التحديد، يشمل التأثير القتالي زيادة القدرة على تحديد الأهداف التابعة لـ "داعش" في الوقت المناسب عبر الطائرات من دون طيار البريطانية من طراز "ريبر" التي سبق أن تم استخدامها بنجاح في العراق وسوريا. بالتالي، فإن متطلبات تبادل المعلومات بين أعضاء التحالف ستتم مع ارتفاع وتيرة العمليات، كما أن المخابرات البريطانية والمرافقة وقدرات الاستطلاع الخاصة بالمملكة المتحدة، وربما يشمل ذلك طائرة مراقبة "ريفيج جوينت" من طراز "RC-135" من شأنها أن تزيد من كمية المعلومات الاستخباراتية المتاحة لمخططي التحالف والتي يمكن إسناد العمل إليها. وسيبين أن تلك أهمية خاصة مع تفكك أهداف "داعش" وقيامها تصبح هذه الأهداف أكثر قدرة على الحركة. فسلح الجو الملكي البريطاني، إلى حد كبير مثل الجيش الأمريكي، يتمتع بالقدرات التي تسمح له بالعمل بشكل مستقل في مناطق القتال لفترات طويلة، بما في ذلك القدرة العالية على التزود

بمجموع الطلعات القتالية على سوريا حتى الآن. ومع زيادة إيقاع الهجمات، فإن زيادة عدد، ولو قليل، من القوات البريطانية التي تتمتع بقدرات عالية ستعزز العمليات بشكل واضح، لا سيما بالنظر إلى النقص الحالي في حاملات الطائرات الأمريكية في الخليج الفارسي (القائفة الفرنسية المنتشرة حالياً لدعم العمليات في المنطقة تتمتع بقدرة عالية، ولكنها بالكاد تشمل حوالي نصف عدد طائرات الهجوم التي تتضمنها حاملات طائرات أمريكية).

من جديد.. قراءة خاطئة للشرق الأوسط

حيثما نظر المرء في الشرق الأوسط يبدو الصراع والاضطراب منتشرين. فنظام الدولة العربية يجد ذاته عرضة للاعتداء. إذ يتحدى تنظيم "الدول الإسلامية في العراق والشام" (داعش) كل نظام عربي ويرفض كل الشيعة.

دينيس روس
معهد واشنطن للدراسات الاستراتيجية

أولاً، إذا نأت واشتدنا بنفسها عن إسرائيل مستكسب العرب إلى صفها. ثانياً، إذا تعاونت مع إسرائيل، ستفقد تعاون العرب. وثالثاً، إذا أرادت تغيير موقفها في المنطقة، وتغيير المنطقة بحسب ذاتها، لا بد لها من حل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. إن هذه الافتراضات الثلاثة خاطئة من الأساس. بالنسبة إلى الفرضية الأولى، فإن إدارات الرؤساء إيزنهاور ونيكسون وكارتر ويوش الأب وأوباما نأت بنفسها عن إسرائيل، متوقعة استجابة عربية. إلا أن أي دولة عربية لم تستجب إيجابياً على عملية قنابل بالذخيرة التي اتبعتها واشتدنا. يُذكر أن الرئيس نيكسون ذهب أبعد من ذلك وأوقف بيع طائرات "ف-٤ فاتكوم" إلى إسرائيل في آذار/ مارس ١٩٧٠ على أمل أن يستجيب الرئيس المصري آنذاك جمال عبد الناصر. وما جعل هذه اللفتة من نيكسون الأكثر شهرة هو أنه أوقف بيع هذه الطائرة في الوقت عينه الذي قام به الاتحاد السوفياتي، للمرة الأولى في تاريخه، بنشر أفراد عسكريين خارج الكتلة السوفيتية، أي في مصر. وأتى رد عبد الناصر على خطوة نيكسون في زيادة مطالبته بإفراج بحطوات أوسع كعبج جماع إسرائيل.

كان الافتراض الذي يقول بأن التعاون مع إسرائيل سيفقد الولايات المتحدة علاقاتها مع العرب خاطئاً، فإدارة الرئيس جون كندی كانت أول إدارة تقدم الأسلحة الحديثة إلى إسرائيل. وقد واجه الرئيس الأمريكي معارضة كبيرة من داخل إدارته على هذه الخطوة، إذ اعتبر وزير خارجيته، دين راسك، أن توفير الأسلحة إلى

من جانبها، تهدد إيران كما اتبعتها من الشيعة، سلطة الدول العربية التي يهيمن عليها السنة. بالتالي، فإن فهم طبيعة التهديدات وما يشكل حقيقة صراعاً حول من سينتولى تحديد هوية المنطقة وتشكيلها، هو الشرط الأول لوضع استراتيجية ناجحة.

من لمثير للاهتمام، ونظراً إلى الظروف التي تمر بها المنطقة، ستخذ إسرائيل موقفاً متناقضاً بشكل صارخ مع بقية دول الشرق الأوسط، وستستمر في كونها شريكاً طبيعياً للولايات المتحدة. فإسرائيل ليست فقط الديمقراطية الوحيدة في المنطقة، بل هي أيضاً البلد الوحيد الذي يتمتع بالمواساة وسيادة القانون - حيث يقبل الخاسر بالانتخابات النتيجة بصدق ربح - التي تسمح له بالتعامل مع مشاكله. وهذه المشاكل، بدءاً من الصراع مع الفلسطينيين مروراً بالأقليات العربية فيه وصولاً إلى الانقسام العلماني الديني، هي مشاكل حقيقية. ولكن بما أن النظام يقوم على الديمقراطية الحقيقية، فإن إسرائيل تتمتع بالمتطلبات للتكيف للأوضاع، حتى إذا كان من الصعب غالباً القيام بعملية التكيف هذه.

من الصعب قول الأمر عينه في ما يخص الدول أخرى في المنطقة. فالسجل الأمريكي في فهم المنطقة، ودونها، ليس بالكبير. عبر النظر في كتابي الجديد، محكوم عليه بالنجاح إلى العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل من عهد الرئيس هاري ترومان وصولاً إلى عهد الرئيس باراك أوباما، أصبح واضحاً أن كل إدارة شمذت ثلاث فرضيات مترابطة ثابتة في جهاز الأمن الوطني.

إسرائيل من شأنه أن يشكل سابقة رهيبية تلحق أضراراً جسيمة بعلاقة واشنطن مع العرب. لكن عند لقائه ولي العهد السعودي الأمير فيصل بن عبد العزيز في نفس اليوم الذي تسرب فيه خبر بيع الأسلحة، ركر ولي العهد على انقلاب في اليمن بدعم من عبد الناصر وليس على الأسلحة التي قامت الولايات المتحدة ببيعها إلى إسرائيل. فالامر، وفق قوله يشكل تهديداً للمملكة العربية السعودية وهي بحاجة إلى الأسلحة والضمانات الأمريكية. وبعد أسبوع، عندما التقى فيصل بكندي في مصر بقي اهتمام ولي العهد منصباً على مصر وليس على إسرائيل، موضحاً بأن تقارب الولايات المتحدة تجاه مصر والمساعدة الاقتصادية التي تقدمها إليها تشكل تهديداً للمنطقة: فقد حررت الموارد لمصرية لتهديد أصدقاء واشنطن وتحول توازن القوى الإقليمي ضد المملكة العربية السعودية وغيرها من الدول ذات التوجه الغربي في الشرق الأوسط. مرة أخرى، طلب فيصل من الولايات المتحدة الحصول على الأسلحة والالتزام بالأمن السعودي.

التاريخ يعيد نفسه، والحجج التي قدمها فيصل لكندي هي نفسها التي قدمها الملك السعودي الراحل عبد الله بن عبد العزيز والملك الحالي سلمان بن عبد العزيز للرئيس الأمريكي باراك أوباما حول إيران. فقد شددت المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربية الأخرى مراراً على قلقها إزاء انخراط إدارة أوباما مع إيران والعواقب المترتبة عن تخفيف العقوبات التي سينجم عن الصفقة النووية الإيرانية. من جديد، يخشى السعوديون أن تستفيد دولة يعتبرونها مثيراً للمتعاب على الصعيد الإقليمي، كما مصر في الستينيات وإيران في الوقت الحالي، من مشاركة الولايات المتحدة.

ما يبرز من هذه الأمثلة، وغيرها من التي أسط الضوء عليها مروراً بكل إدارة من الإدارات الأمريكية، هو أن واشنطن دائماً ما قرأت أولويات القادة العرب بشكل خاطئ. فالأولوية ليس إسرائيل، بل أمنهم واستمرارهم. فالمنافسون الإقليميون يشكلون لتهديدات التي ينشغلون بها، وهم يعتمدون على واشنطن لضمان أمنهم. نظراً إلى ذلك، فإنهم لن يريطوا يوماً ما بين علاقتهم مع الولايات المتحدة وعلاقة واشنطن مع إسرائيل.

في الحقيقة، إن مصداقية لولايات المتحدة هي التي تهمهم. فإذا ما اعتبروا أن واشنطن هي أقل موثوقية، وهو ما يفعلونه إلى حد ما اليوم، فإن ذلك هو الذي سيؤثر على علاقاتهم مع الولايات

المتحدة واستجابتهم لها. وهنا ترى واشنطن الكتل في الفرضية الأخيرة، أي مركزية الصراع الفلسطيني الإسرائيلي في المنطقة وموقف الولايات المتحدة منه. ولا يرى معظم الزعماء العرب أن هذا الصراع يؤثر بشكل جذري على أمنهم.

هذا لا يعني أنهم غير مباليين بالصراع الفلسطيني. بل هم يدركون أنه تراقف تاريخياً مع جماهيرهم كفضية من الظلم الذي لا بد من تصحيحه. ولكن القضية تميل اليوم إلى العودة إلى المقعد الخلفي بالنسبة إلى الجماهير العربية التي تنظر إلى النزاعات وغيرها - بدءاً من الحرب الأهلية السورية وإلى تهديدات "داعش" وإيران.

بالتالي، ماذا يعني كل هذا بالنسبة إلى صانعي السياسة الأمريكية؟ في البداية، إن واشنطن بحاجة إلى مفهوم واضح يوجه استراتيجية. فمن الطبيعي أن تبدو هزيمة تنظيم "داعش" على رأس أولوياتها، ولكن لتحقيق ذلك تحتاج الولايات المتحدة إلى الدول السنية، والدول والعشائر السنية هي وحدها القادرة على تشويه سمعة "الدولة الإسلامية". إن ذلك يستبعد

بالوقود جواً عن طريق طائرة "فويجر KC2" أو امتلاكه أسطول طائرات شحن فعال يشتمل طائرات مثل تلك من طراز "C-130".

إلى جانب الفوائد التكتيكية المحتملة التي يمكن أن تنشأ عن قرار البرلمان هذا، فإن هذا القرار سيوصل رسالة قوية، بطريقة أو بأخرى، إلى الحلفاء والخصوم على حد سواء. على سبيل المثال، كيف سينظر الشركاء، مثل فرنسا وألمانيا، إلى التصويت "ضد" هذا التوسع والفرق الواضح في السياسة الذي سيثير إليها؟ ففي أعقاب الهجمات الإرهابية الأخيرة التي شهدتها باريس، تلتزم هاتان الدولتان بشدة في حملة مكافحة "داعش" في سوريا، لذلك فإن تصويت بريطانيا سيكون له تأثير كبير في تحديد اللهجة المثبتة في هذا السياق. بالمثل، يمكن لوجهات النظر المختلفة المستمرة بين لندن وواشنطن حول الحرب ضد "الدولة الإسلامية" أن تعزز الرواية التي تقول بأن الولايات المتحدة وأوروبا تفرقان أكثر فأكثر، وهو تطور ستسعى موسكو إلى استغلاله. في الواقع، من شأن تصويت البرلمان أن يدعم الرئيس السوري بشار الأسد وحماته في روسيا وإيران، مما من المحتمل أن يشير إلى أن عمليات التحالف مشروعة في العراق ولكن ليس في سوريا. ولذا آخر المناقشات البرلمانية هذه تشكل فرصة هامة للقيادة البريطانية المنتخبة للنظر في جميع مخاطر معارضة التغيير، والتي باتت كثيرة في الوقت الحالي.



لشراكة مع بشار الأسد أو الإيرانيين في سوريا حتى فيما تسعى واشنطن إلى بساء النفوذ الجماعي على أرض الواقع لتشكيل العملية السياسية التي ستؤدي في مرحلة ما إلى وضع نهاية للحرب الأهلية.

ومن المفارقات، أن معظم الدول السنية العربية تنظر اليوم إلى إسرائيل باعتبارها حصناً منيعاً ضد كل من الإيرانيين و"الدولة الإسلامية" والجماعات التي تزعم لولاء لها. وفي حين أنها قد تبقى تعاونها مع إسرائيل سرياً إلى حد كبير، نظراً إلى الحساسيات الشعبية حول القضية الفلسطينية، فإن نطاق ما تقوم به إسرائيل الآن مع عدد من الدول العربية في مجال الأمن لم يسبق له مثيل. وهنا يبرز أحد المجالات التي يجب أن تشدد واشنطن عليه، لا سيما بالنظر إلى قيمته في إقناع أصدقائها التقليديين في المنطقة بأنها أكثر تفهماً للتهديدات التي تقفهم. فإثبات ذلك واستعادة الموثوقية الأمريكية، أمور ستسهل من زيادة مطالب الولايات المتحدة من شركائها الإقليميين في مواجهة "داعش" وأفعال إيران الهادفة إلى زعزعة الاستقرار في المنطقة.

ملخص

في نهاية المطاف، بشكل فصح الفرضيات التي ضللت واشنطن في المنطقة أمر لا بد منه لنجاح أي استراتيجية.